

مفهوم التخلف الحضاري في خطاب الجاحظ بين المصطلح والدلالة (كتاب البخلاء نموذجًا)

د/منى إبراهيم الدسوقي (*)

مقدمة:

لكل أمة مفكروها الذين ينيرون لها الطريق، فتحرص هى على أن تلهج بذكرهم لما لهم من دور بناء فى نهوض مجتمعهم، ونحن حريصون على البحث عن هؤلاء المفكرين، وإعادة النظر فيما قدموه، فقابلية خضوع ما صاغوه للدرس فى كل عصر منبع خلودهم. ومثلما نلهج بذكر من أناروا لأمتنا الطريق فى العصر الحديث من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ... فإن التراث العربى القديم مازال يتدفق بعطاء هذه الشخصيات.

لذلك يحرص هذا البحث على بيان أثر مفكر كبير فى عصره وأمته - وهو الجاحظ- للاستفادة بما قاله فى عصرنا الحالى الذى تراجعت فيه الأمة خطوات كثيرة للوراء، بتناول أثر فنى - هو كتاب البخلاء - ليكون موضوع البحث فى علاجه لقضية تؤرق أمتنا الآن، وهى قضية التخلف الحضارى الذى نعيشه. أما سر اختيار كتاب البخلاء بالذات نموذجاً لعلاج هذه القضية فله ما يبرره:

أولاً: هذا الكتاب يضم قضايا اجتماعية صريحة مثل قضية البخل وأعاجيب تصرفات البخلاء... إلا أن تحليل خطاب الجاحظ يمكن أن يكشف عن تعدد المعانى التى يريد أن يرسلها للمتلقى، فالأعمال الأدبية الخالدة فى جوهرها

(*) كلية الألسن - جامعة عين شمس

رمزية فى قابليتها لتعدد المعنى "فالرمز عملية متواصلة دائمة، والذى يتغير وعى المجتمع به، وما يعلق عليه من أهمية، أما الأثر نفسه فهو خالد، لا بمعنى أنه يفرض رؤية جديدة على أجيال عديدة، وإنما يوحى بمعان متعددة لنفس الإنسان فى أوقات متعددة، فالأثر لا يفتأ يقترح على الإنسان الذى ينشرح له"(١).

ثانياً: هناك مؤلفات أخرى للجاحظ تتحدث عن قضايا مماثلة، كما فى كتابه "الحيوان، الذى يضم موضوعات متشعبة فى نقد آفات المجتمع، حيث أطلق لقلمه العنان "يزيف الخرافات والترهات فى عصره وقبل عصره"(٢) إلا أن الدراسة ترى أن معالجة قضية التخلف الحضارى من خلال كتاب البخلاء أفضل، لأنه ركز على قضية إنسانية فى الشخصية العربية، وبالتالى نركز على أنماط خطابه فى معالجة هذه القضية، وإصراره على تكبيرها وعلاجها.

ثالثاً: إذا كان النص فى كثير من حالاته يتسم بالتكرار كما (لا تتأتى الرغبة فى الكتابة إلا من خلال تجربة سابقة، فالأدب لا يستمد قوته إلا من نفسه"(٣).

إن عبقرية الجاحظ فى توجيه رسالته فاقت التصور، فقد عالج قضية غاية فى الخطورة، وهى قضية تخلف العرب الذين اعتبرهم الجاحظ نفسه من أفخر الأمم بذاتها، ومع ذلك قال ما قال، ووصل خطابه للمتلقى دون غضاضة معتمداً على صدق قلمه. وبالتالى فإن الدراسة تركز فى الفصلين التاليين فى معالجة هذا الخطاب على الجانبين الآتيين:

١- الظروف المحيطة بالخطاب والتى أوجدت القضية.

٢- الرموز الصغرى، والعلامات الغائبة فى أعماق الخطاب ومدلولها اللغوى والاصطلاحى.

الفصل الأول

الظروف المحيطة بالخطاب

كى يكون الأديب مصلح عصره، عليه أن يتمتع بالقدرة الفائقة على إدراك جوانب الضعف فى أمته، والنظر إليها بزوايا مغايرة للعامة، وقد يستغرب البعض، أيعقل أن يعالج الجاحظ قضية تخلف الأمة، فى العصر الذهبى للحضارة الإسلامية التى تمتع فيها أرباب العقول بحرياتهم، "وكثر الباحثون والدارسون، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدى من أتقنوا فنهم وعلمهم"(٤).

ومع ذلك نرى لهذا الخطاب ملابسات أحاطت به وأبرزته، فاستطاع بها الجاحظ أن يتواصل مع المتلقى، وينجح فى إقناعه بخطورة القضية على النحو التالى:

أ - دوافع التعبير:

كان الحكم العربى الأموى يناصر التقليد العربى، ويقاوم التأثير الأعجمى حفاظاً على السيادة العربية (فكان من ذلك طغيان مقاييس البداوة على مؤثرات الحضارة الجديدة"(٥) ولما انتقلت عاصمة الخلافة إلى بغداد ظل العرب يحافظون على بداوتهم كاملة، إلا أن كفة الفرس والأعاجم رجحت على كفة العرب، حيث جعلوا "من قصور بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن، فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وانفتحت على الجديد"(٦).

ورغم أن الثقافة العربية قد امتزجت بثقافات كثيرة، فإن آفة الثقافة الفارسية وحضارتها ظلت تعمل فى نفوس العرب عملها، بإشعارهم بتخلفهم وتعاليا عليهم، والسبب أنه تم تفويض دولة الفرس "ولم يستنم هؤلاء، وظلوا يتطلعون إلى عودة الحكم

مهما طال الزمن، ولهذا عمل الفرس فى مستويات وأساليب متعددة لخلق التناقض فى المجتمع العربى"[٧].

ولكى يشعروا العرب بضآلة إنتاجهم العقلى، كانوا يستقدمون الأذكياء من شبابهم ليدرسوا اللغة العربية وثقافتها بقصد إثبات تفوقهم على العرب، ويخطئ من يفصل بين ابن المقفع وذلك المخطط، وينزه أدبه من أثر الأحداث عليه، فقد اعتمد الفرس عليه لدعم وسائلهم وتنفيذها إلى حد كبير فى جميع مؤلفاته. فبدا فى نظر الكثيرين مصلحًا اجتماعيًا يقدم النصيحة خالصة للمجتمع الإسلامى إلا أن هذه النصيحة كانت مغلوطة، والتفت إليها الجاحظ وحذر منها ومن أخذ نصائح الفرس، وسنشير لهذا فى موضع آخر.

فى هذه الفترة أيضًا ظهرت الشعوبية تنفس عن غيظها المكظوم، وتزرى على العرب وتلتمس عيوبهم وتسجل ذلك فى الشعر والنثر والمؤلفات. وكان أحمد بن يحيى النحوى يقول "من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبى عبيدة، ومن أراد أخبار الإسلام فعليه بكتب المدائنى (أبو الحسن) فأما أبو عبيدة بن المثنى، فهو أكبر من عمل على تدمير العرب فى ظل الشعوبية، وكان من عادته إذا رأى للعرب فضيلة نسبها إلى غيرهم"[٨].

لقد كان ابن المقفع بمؤلفاته يقدم النصيحة خالصة، وكان الشعوبيون يثلبون ثلبًا خالصًا، وكلا الحالين مما يبعث على القلق، ويحتاج إلى بصير بأحوال العرب محب لهم ولا يخفى عيوبهم، لقد اضطلع الجاحظ بهذه المهمة، وكان يقول "ولكنى أخذت بآداب وجوه أهل دعوتى وملتى ولغتى وجزيرتى وجيرتى وهم العرب"[٩].

هل كان حب العرب وآدابهم ودينهم ولغتهم وجيرتهم مما ينصب الأفراد لكسب هذه القضية؟ كثيرون امتلكوا هذه الصفات ولم يحركوا ساكنًا، لأنهم لم يملكوا من أدوات الخطاب ما يؤهلهم للقيام بهذه المهمة، والبوح بخطورتها.

ب - التواصل مع المجتمع:

لقد تهيأ للجاحظ من الأدوات ما أعانه على التواصل، وبكل ما امتلكه من تجارب فى نقل رسالته. منها أن البصرة كانت تربى أبناءها تربية نقدية "فقد عودتهم ألا يقبلوا شيئاً إلا إذا احتكموا به إلى العقل"(١٠). ومجتمع يتمتع بالعقل المحص تكون الريادة فيه حقيقية، وليست بدعة، وقد أدرك الجاحظ كى يبث خطابه ويحقق إيديولوجيته أن يسلك طريق العقل. نراه يرتكز كثيراً على العقل يقول "أكثر الناس سماعًا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علمًا، وأكثرهم علمًا أرجحهم عقلاً"(١١).

كما اتهم المقصرين فى التفكير بإغفال العقل والاتكال على الحفظ يقول "وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير، جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين وعز الثقة"(١٢) وحذر من اغترار الإنسان بما ألف، ومما يعرض لقلبه وأن يتحفظ من شيئين "أحدهما الألف والآخر تهمة السابق إلى القلب لأن نجاته لا تتم إلا بهما يقول "فلا تذهب إلى ما تريك العين، واذهب إلى ما يريك العقل"(١٣). لقد خاطب الناس بالعقل، وتواصل معهم بشتى أطيافهم.

ومن أدوات تواصل الجاحظ أيضًا معرفته بطبائع الناس، فقد كانوا يؤثرون السماع والأخذ من الرواة على مطالعة الكتب، فجعل رسالته غرس عادة التحصيل منها يقول "قد نجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء، خمسين عامًا، وهو لا يعد فقيهاً ولا يجعل قاضيًا، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة...، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين، حتى يمر فتظن أنه من بعض العمال، وبالحرى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكمًا لمصر من الأمصار أو بلد من البلدان"(١٤).

فقد عرف رغبة النفوس فى الشهرة والمال، ومادامت المسألة لا تتجاوز النظر فى صفحات الكتب فى سنوات قليلة، فحتمًا سيزيد المقبلين على الأخذ من الكتب "وهذا منزع من منازع الجاحظ فى الإصلاح والتمدين، يحاول أن يصل به إلى غاية معينة، فخاطبهم بما يقربهم إليه... وأنه لو اعتمد فى تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته فقط، لضاع على الناس علم كثير"(١٥).

ومن الأدوات أيضًا أنه لم يترك الأقوال التى تدعو إلى فت العزيمة وتثبيطها تسرى بين الناس، وإنما حاربها خاصة فى الجانب العلمى وكان شعاره "إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح"(١٦).

إنه من أجل تواصله بالمجتمع قد دق كل الأبواب، ولم يعش للكتب فقط، لقد ولج أبواب الخاصة والعامة، وأكمل القراءة بالنزول للناس فى كل ميدان يسألهم عما يهمه، وهذه السمة ألبت عليه حساده لا فى عصره فقط، وإنما بعد عصره، فالباقلانى قال "قد زعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه، والباب الذى لا يذهب عنه، وأنت ترى قومًا يرون كلامه قريبًا، ومنهاجه معيبًا، ونطاق قوله ضيقًا، حتى يستعين بكلام غيره، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ومثل نادر وحكمة ممهدة... وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة وألفاظ يسيرة"(١٧).

وهؤلاء الزاعمون غالطوا أنفسهم، فالأديب الذى يعيش فى برج عاجى هو أبعد الناس عن قضاياهم، وأقدرهم على علاجها أقربهم وأعرفهم لها.

جـ- القدرة على الإقناع:

يبدو أن الجاحظ قد خاض حربًا ضروسًا للوصول إلى القارئ، فلم تلق رسائله آذانا صاغية فى أول الأمر. ورغم أنه لم يكتب فى موضوعات تاريخية، ولا تحدث عن السير الذاتية للأعلام - لأنه كان يرى أن ذلك من مهمة غيره - فإن ذلك لم يلق اعتراضًا عند الخلفاء، وإنما الاعتراض والانصراف كان من العامة المعنيين بهذا الخطاب؛

فقد كان شغلهم الشاغل هو الإنصات إلى أعلام العصر، وعلى رأسهم الكتاب أصحاب النباهة والشهرة من أمثال ابن المقفع وسهل بن هارون الفارسيين.

ومن ثم كان الجاحظ ينسب باكورة أعماله للكتاب الكبار، يقول "فإنى ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن فى الدين والفقه والرسائل والسيرة... فأنسبه إلى نفسى، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته"[(١٨)] أما إذا نسب هذه الكتب لأديب مثل يحيى بن خالد أو غيره، فإنهم يتهافتون عليه يقول "وربما ألفت الكتاب الذى هو دونه فى معانيه وألفاظه، فأترجمه باسم غيرى، وأحيله على من تقدمنى عصره، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد... فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماما يقتدون به"[(١٩)].

رأى أن أعلام الفرس - الذين قاموا بدور المصلحين الاجتماعيين - لا يقدمون النصيحة المخلصة، ورأى أن واجبه توضيح ذلك للناس، يقول "ذكر أبو بكر الأصم ابن المقفع فقال: ما رأيت شيئاً إلا قليله أخف من كثيرة إلا العلم، فإنه كلما كثر خف محمله، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا مع غزارة علمه وكثرة روايته كما قال الله عز وجل ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (٥/الجمعة/٦٢) قد أوهنه علمه، وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته"[(٢٠)].

لقد عرض الجاحظ لكثير من المسائل التى لم يفكر فيها غيره، كى يحطم هذا الجدار السميك الذى حال بينه وبين المتلقى، معتمداً على مقدرته الجدلية التى كونها من انتسابه لفرقة المعتزلة الكلامية، ومن سخريته التى عرف بها "فقد قيد عليهم أنفاسهم وخلد غرائب أطوارهم، وعجائب تصرفاتهم وشواذ أغراضهم"[(٢١)].

ولقد أحس معاصروه من الفرس بذلك، فى عصر الخليفة المأمون - الذى أدرك قيمة الجاحظ - حين ولاه ديوان الرسائل فكانت لسهل بن هارون هذه المقولة "إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب"(٢٢).

ولم يمض وقت طويل حتى طارت شهرته فى الآفاق. حكى الرواة أنه "قيل لأبى هفان الشاعر لم لا تهجو الجاحظ، وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟ فقال: أمثلى يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت بعد ألف سنة"(٢٣).

إن نصوص كتاب "البخلاء" تمتاز بخاصية الخطاب بوصفها ذات علاقات مشتركة، والكتاب كما يدل عنوانه يشير إلى طائفة من أصحاب الجمع والمنع فى فترة هامة من تاريخ المجتمع العربى إذْ إنه يصور "التناقض الاجتماعى فى تلك الحاضرة سواء على الصعيد القومى، أو على الصعيد الطبقى أو الفردى"(٢٤) ويمتاز هذا الخطاب بأنه خطاب دائرى لا يحدد فيه فئة دون فئة، فلا هو رسالة من العامة للخاصة، ولا هو رسالة من الخاصة للعامة، وإنما يشمل شتى الفئات وكأنه كان فى رسائله همزة وصل بين الجميع. ثم إنه حمل خطا ظاهراً جليًا هو أفعال البخلاء وبخاصة الفرس الذبن عابوا فضيلة الكرم العربية، فأشار إلى بخل الفرس، وبخل خلفاء بنى أمية وولاتهم، إلا أن هناك خطابا ثانويًا متقطع الأوصال، لم يشر إليه الجاحظ صراحة، لكنه موجود لو استخدمنا مفاتيح شفرته. والجاحظ نفسه لم يخط كتابه فى قضايا ظاهرة بطريقة بسيطة فهو على وعى تام بهذه القضية موضوع البحث يقول "وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك فى حسنه، وأوقفك على جده"(٢٥). فمن خلال هذا الكتاب - كتاب البخلاء - ندرك أنه ينقل أحدث ما عرفته مجالس الخلفاء من رقى حضارى إلى العامة، والتى لم يفلح هو فى تلقيها من مجالس علماء البصرة أو بغداد لمحو البداوة والسوقية.

أما المتلقى الذى قصده الجاحظ برسالته فهم العرب الذين أراد أن يكتمل تحضرهم

بسد جوانب النقص سواء أأدرك المتلقى ذلك، وأنه هو المعنى أم لا. المهم هو الغاية والدليل؛ هذا النص الذى ورد فى كتابه البخلاء يحذر بنى جلدته من الروم والفرس يقول "ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم، أنك لا تجد للجود فى لغتهم اسما. يقول: إنما يسمى الناس ما يحتاجون إلى استعماله، ومع الاستغناء يسقط التكلف. وقد زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس، أنه ليس للنصيحة فى لغتهم اسم واحد يجمع المعانى التى يقع عليها هذا الاسم، وقول القائل: نصيحة ليس يراد به سلامة القلب... فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة، إذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الاسم الواحد فى لغة العرب، فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم"(٢٦).

فالنص ذو ثلاث دلالات: بخل الروم، وكذب نصيحة الفرس، ونفى الغش عن العرب.

أما الدلالة الأولى فهى بخل الروم الذين لا يجد فى لغتهم اسما للجود، وبما أن البخل فى كتاب البخلاء موجه أساسًا للفرس، فقد أغلق الجاحظ خطابه الموجه للروم عند هذا الحد، والسبب فى ذلك أن الروم الذين عاشوا فى العراق لم يتعرضوا للعرب، ولم يهاجموهم بالتعالى عليهم.

أما الدلالة الثانية وهى نصيحة الفرس المغشوشة، والتى اتخذ منها الجاحظ بابا لولوج موضوعه الرئيسى، فقد ارتكزت على هدم الاعتقاد الوهمى الذى زرعه الفرس فى نفوس العرب، بأنهم ومن خلال نقل تراثهم للأدب العربى يصلحون المجتمع، ويقيمون نهضة حضارية مزعومة، ممثلة فى مؤلفات ابن المقفع وترجماته هو وغيره من أدباء الفرس. وربما كان وضع رسالة سهل بن هارون فى مفتتح كتاب البخلاء تعرية لهذه الحقيقة.

أما الدلالة الأخيرة، والتى عليها مدار هذا البحث فهى صدق نصيحة العرب، ومن هذا المنطلق يقدم الجاحظ الرسالة يتوجه بها إليهم مبينا عيوبهم برفق وإخلاص حتى لو كانوا بدوا أو سوقة يحتاجون لناصح أمين.

هوامش الفصل الأول

١- نظرية البنائية: د/ صلاح فضل، ط١، دار الشروق سنة ١٩٩٨، ص ٢٠٠

٢- أمراء البيان: محمد كرد على، ط٣، دار الأمانة، بيروت ١٩٦٩، ص ٣٦٤

٣- نظرية البنائية: د/ صلاح فضل، ص ٢٢٥

٤- أمراء البيان، ص ٢٨٢

٥- الأساليب الفنية فى النثر العربى القديم: كمال اليازجى، ط دار الجيل بيروت ١٩٨٦، ص ٥٠

٦- الجاحظ: حنا الفاخورى، ط دار المعارف، ١٩٥٦، ص ٧

٧- دراسات فى الادب العربى: إنعام الجندى، ط دار الطليعة، بيروت، ص ٣٩

٨- الحياة الأدبية فى البصرة: أحمد كمال زكى، ط١، دار الفكر بدمشق، ١٩٦١، ص ٣٤٥

٩- الحيوان: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار الجيل بيروت ١٩٨٨، جـ٣، ص ٣٦٧

١٠- الحياة الأدبية فى البصرة: د/ أحمد كمال زكى، ص ٥٠٢

١١- أمراء البيان، ص ٣٩٠

١٢- رسائل الجاحظ: اختيار الإمام عبيد الله حسان، شرح وتعليق محمد باسل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٠، جـ ٣، ص ٢٥

١٣- أبو عثمان الجاحظ، محمد عبد المنعم خفاجى، ط دار الكتاب اللبنانى، سنة ١٩٧٣، ص ١٦٨، الحيوان للجاحظ، دار الجليل بيروت، تحقيق عبد السلام هارون، سنة ١٩٨٨، جـ ١، ص ٢٠٧

١٤- أمراء التبيان، ص ٣٠٠

١٥- السابق، ص ٣٠١

١٦- معجم الأدباء ياقوت الحموى، مراجعة دار المعارف العمومية، جـ١٦، ص ٧٨
١٧- إعجاز القرآن للباقلانى، "أبو بكر محمد بن الطيب" تحقيق احمد صقر، ط دار المعارف، ١٩٥٤، ص ٣٧٧
١٨- رسائل الجاحظ - رسالة الحاسد والمحسود، جـ١، ص ٢٤٧
١٩- رسالة الحاسد والمحسود الجاحظ جـ١، ص ٢٤٧-٢٤٨
٢٠- رسالة ذم أخلاق الكتاب الجاحظ جـ٢، ص ١٤٦
٢١- أدب الجاحظ: حسن السندوبى، ط١، سنة ١٩٣١، مكتبة الرحمانية، القاهرة، ص ٢٠٠
٢٢- معجم الأدباء، جـ١٦، ص ٧٦
٢٣- معجم الأدباء، جـ ١٦، ص ٩٤
٢٤- دراسات فى الأدب العربى - كاظم حطيط، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٣، ص ٥٩
٢٥- رسائل الجاحظ: رسالة المعلمين للجاحظ، جـ٣، ص ٣٣
٢٦- البخلاء - الجاحظ شرح وتحقيق يحيى شامى، ط١، سنة ١٩٩٥، دار الفكر العربى، بيروت، ص ١٩٥-١٩٦

الفصل الثانى

مفهوم التخلف الحضارى بين المصطلح والدلالة

هل تردد مصطلح التخلف الحضارى فى صيغ الكلام فى عصر الجاحظ كما نردده الآن ؟ ومتى بدأ هذا المصطلح يأخذ دلالته؟ هل استخدم الجاحظ مفردات تدل على نفس المصطلح؟ وأين شفرة خطابه فى كتاب البخلاء؟ هذا ما سيعرضه البحث.

التخلف الحضارى بمعناه اللغوى يضم لفظين هما:

التخلف كما ورد فى المعجم الوسيط: من الفعل خلف، ومنه خلف الشئ: تغير وفسد، وخلف فلان: حمق. ويقال: خلفت نفسه عن الطعام: أعرضت لمرض(١)، أما فى لسان العرب: التخلف: التأخر(٢).

الحضارى: نسبة للحضارة ويقصد بها: الإقامة فى الحضر كما قال القطامى:

زمن لم تكن الحضارة أعجبته

فأى رجال بادية ترانا(٣).

ومن معانيها أيضًا: مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى ومظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى فى الحضر(٤).

ويبدو أن لفظ الحضارة عرف لأول مرة من خلال شعر القطامى الشاعر الأموى، ولم يكن يقصد به الرقى والتطور، وإنما سكنى المدن، والتى من دلالاتها اكتساب مظاهر الرقى الفنى والاجتماعى.

أما فى لسان العرب: الحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادى، والحضارة الإقامة فى الحضر(٥).

أما الحضارة فى اصطلاح العلم الحديث فهى: ظاهرة إنسانية عامة و"تجسيد عملى

للنشاط الفكرى عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة"(٦)، ومن ثم فأى تراجع أو تأخر فى الفكر وفاعليته الفنية والدينية والعلمية ومستوى المعيشة هو من قبيل التخلف الحضارى الذى نقصده هنا.

إن الجاحظ لم يشر صراحة فى خطابه إلى مصطلح التخلف بالمرة، ولم يشر أيضًا إلى مصطلح الحضارة صراحة، فهو يدرك خطورة ما يقدم عليه وهو الإشارة إلى عيوب العرب لأنهم كما يقول ويعرف "أفخر الأمم وأرفعها"(٧).

وإنما بث مجموعة من النصوص تشترك فى هدف واحد، وتتحدث عن تصرفات خارجة عن المألوف، ومما يرفضه الذوق المتحضر. بمعنى أنها قد تحمل دلالات لغوية واضحة على الحدث - الرسالة - المراد إرساله للمتلقى.

والخطاب طبقاً للنظرية البنائية حدث لغوى، كما يرى "جاكوبسون" - باعتباره مؤسس النظرية البنائية الحديثة - "يتضمن رسالة وأربعة عناصر مرتبطة بها هى: المرسل، والمتلقى، ومحتوى الرسالة و"الكود" أو الشفرة المستعملة فيها"(٨).

وخطاب الجاحظ - باعتباره المرسل - لا يحمل رسالة واحدة أو نصًا واحداً، وإنما مجموعة من النصوص التى لا يربط أحداثها وإيديولوجياتها علاقة بالمرة، صحيح أنها تقع فى منطقة بث واحدة وهى كتاب البخلاء، إلا أنها مبعثرة فى أماكن متفرقة ومتنوعة المحتوى، مما يعطيها سمة عدم المباشرة، لكنها تشترك فى مدلول واحد أو حدث لغوى واحد، وهذا من براعة العلامة عنده، وتسعى الرموز السيمولوجية للبحث عنها وفك شفرتها.

هذه الرموز فى علاقاتها "متعددة ومتغيرة، فقد يحدث أحياناً أن تعمل الوظائف المختلفة لها بشكل منعزل، ولكن المألوف أن نجد مجموعة من الوظائف متماسكة مترابطة، لا تتكدس مع بعضها البعض، ولكنها تنتظم فى مراتب"(٩) ولها دورها فى نقل الحدث.

النصوص التى أوردها الجاحظ رغم اختلاف عناصرها، لا تخل برموزها، وهذه العناصر من خلال بحثها تحمل وظائف أساسية ووظائف ثانوية.

وإذا كانت وظيفة عناصر الخطاب الثانوية تتمركز حول إطراف المتلقى بكل غريب عن عالم البخلاء، فإن هذا ليس ما سعى إليه المرسل، وإنما الوظيفة الأساسية لها حمل شفرة الخطاب، وهو الغرض المقصود منها.

وللخطاب هنا دلالتان كبيرتان ذات مجالين، طبقاً للرموز التى يعالجها "المجال الأول يشمل الرموز الصغرى التى تقل عن مستوى الجملة اللغوية"[١٠]. أى دون التحليل اللغوى للجمل. أما المجال الآخر فيشمل الرموز التى تزيد على مستوى الجملة، أى أجزاء القول التى يمكن أن نستنبط منها هيكل النص"[١١].

دلالة المجال الأول

أما بالنسبة للمجال الأول فنستطيع أن نصل إليه من ظواهر الإيحاء أو الانحرافات الدلالية التى تتمثل فى الأغراض الظاهرة للنصوص، لكنها تقود فى نفس الوقت إلى الشفرة والمدلول. هى بمثابة رموز صغرى لأنها تمثل دلالات ظاهرة، أو علاقات حضور يمكن إدراكها فى نصوص الخطاب، وسر ظهور هذه الدوال، أنه ليس فيها ما يعرض المتلقى للحرج والإشعار بالنقص الحضارى، أو الغموض.

وهذه الدوال تعتمد على الإيحاء بالمدلول وبانحرافات الدلالة الظاهرة فى:

أ - التعامل مع الطعام. ب - العلاقات الاجتماعية.

أ - بالنسبة للتعامل مع الطعام، نجد الجاحظ يقدم نصوصاً متعددة ظاهرة العلامة وهى أيضاً مجموعة من المتتاليات أو مجموعة نصوص ذات غرض واحد وإن تشابهت أو اختلفت فى دوالها مثل:

* شيخ النخالة الذى يقول "قلت للعجوز - الزوجة - لم لا تطبخين لعيالنا فى كل

غذاء نخالة، فإن ماءها جلاء للصدر، وقوتها غذاء وعصمة، ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبيعينه؟" (١٢).

والدلالة الظاهرة فى نص هذا الخطاب، هى دلالة البخل، لكنها تنحرف لتوحى بعلامة أخرى أقرب إلى الإيحاء الظاهر أيضًا، نراه جلياً فى الجملتين الأخيرتين.

هذا "وقالوا كان بلال بن أبى بردة قد خاف الجذام، وهو والى البصرة، فوصفوا له الاستنقاع فى السمن، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه، فاجتنب الناس فى تلك السنة أكل السمن"(١٣).

حيث تنحرف الدلالة الظاهرة - وهى البخل - من إيجاد طريقة صحية وقائية إلى علامة أخرى إيحائية، نجدها فى النصف الثانى من نص الخطاب. ونرى الكاتب يستخدم اللغة هنا استخداماً خاصًا يقوم على غرابة التصرف بما يجعلها تنحرف عن اللغة العملية وهذا من صميم الأدب "فاللغة العملية تستخدم استخدامًا يرتبط بأفعال التوصيل، أما اللغة الأدبية، فليس لها أية وظيفة عملية، وإنما تجعلنا نرى بطريقة مختلفة فحسب(١٤). والانحراف اللغوى الحادث هنا، هو انحراف المألوف فى الفعل الصادر عن هذا الوالى، بما يوحى أن الغرض ليس الحدث الظاهر، وإنما الإشارة لمدلول آخر محدد.

* حقنة الأسدى، يقول "احتقن عمر بن يزيد الأسدى بحقنة فيها أدهان، فلما حركته بطنه كره أن يأتى الخلاء فتذهب تلك الأدهان، فكان يجلس فى الطست ويقول: صفّوا هذا فإنه يصلح للسراج"(١٥).

هذه الدلالة الظاهرة تكمل ما ورد فى النص السابق، لكنها تحمل علامة مغايرة تكمن فى آخر جملة. إن النصوص الثلاثة السابقة رغم تقطعها، واختلاف دوالها الظاهرة تحمل مدلولا واحد إيحائيًا هو تلويث الطعام وأوانيه بطريقة مقززة كإحدى إيديولوجيات هذا الخطاب.

* أما هذه المجموعة من نصوص الخطاب لنفس الإيديولوجية، فهى تحمل دلالة جديدة على النحو التالى:

- قال أبو عبيدة: ذاكراً قول خالد بن عبد الله القسرى: "نظر خالد المهزول فى الجاهلية يومًا إلى ناس يأكلون، وإلى إبل تجتر، فقال لأصحابه: أترونى بمثل هذه العين التى أرى بها الناس والإبل؟ فقالوا نعم. فحلف بإلاهه ألا يأكل بقلا إلى أن مات هزلا... ثم قال خالد: هأنذا مبتلى بالمضغ، ومحمول على تحريك اللحيين، ومضطر إلى مناسبة البهائم.. ليأكل كل امرئ فى منزله، "وفى موضع أمنه وأنسه، ودون ستره وبابه"(١٦).

إذا كان العمل الأدبى علامة على الواقع الخارجي، وليس مجرد زخرف حرفى له، بل "يدل على معان لا نصل إليها فور تلقيها أو ارتطامنا بهذا الواقع"(١٧) فإن النص السابق من الخطاب يؤكد ذلك، حيث وظف الجاحظ دوال متراكمة واتجاهات قد تصدمنا إذا أدركنا معناها الظاهرى منها:

أنه أورد الخطاب على لسان فاعل دلالى هو أبو عبيدة بن المثنى والواقع يقول إنه شعوبى شديد التعصب على العرب.

ومنها أن خالد المهزول شخصية عربية جاهلية، اكتشف أن سلوك الناس فى مجتمعه يشبه سلوك الحيوان فى تناول الطعام. ومنها أن رواية أبى عبيدة هذه جاءت على لسان خالد بن عبد الله القسرى وإلى الأمويين على العراق والمتهم بالبخل، إلا أن هذه الدلالات ليست زخارف لفظية حرفية يسلى بها الجاحظ قارئه، وإنما هى شديدة الارتباط بالنص، ومن ثم يجب أن نستقبلها بحذر لأسباب، فأبو عبيدة فارسى لا يخلص النصيحة فيما يرويه، وأن خالد القسرى أموى الانتماء والعصر، بما يوحى للقارئ بكثير من الدلالات. كما توجد إيماءات دينية ممثلة فى الحلف بالآلهة الوثنية الجاهلية، ومع كل هذه المحاذير فى القراءة، فقد أورد الجاحظ النص لما فيه من إيحاء وانحراف، وشفرته

تكمن فى آخر جملتين، وتدعو إلى عدم الجلوس عند تناول الطعام بجوار الحيوان، والأكل فى أماكن الطعام المخصصة له. فالخاصية المميزة للغة النص أنه يرتبط بالواقع فى "وجود تشابه بين بنية العمل الفنى الدالة وبنية الشئ الخارجى المدلول"(١٨) فالسلوك الخاطئ لا يختلف عليه احد، حتى لو كان شعوبياً أو جاهلياً أو مخالفاً فى الانتماء السياسى.

- قال الحارثى: قال أبو الفاتك: الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافاً ولا مرسالاً ولا لكاماً، ولا مصاصاً.... والله إنى لأفضل الدهاقين حين عابوا الحسو، وتقززوا من التعرق، ويهرجوا صاحب التشميش، وحين أكلوا بالبارجين، وقطعوا بالسكين، ولزموا عند الطعام السكتة، وتركوا الخوض، واختاروا الزمزمة. أنا والله احتمل الضيف والضيفن، ولا احتمل اللعموظ ولا الجردبيل، والواغل أهون على من الراشن"(١٩).

إذا كانت الكتابة فى مجال الخطاب الأدبى، تعنى القدرة على توظيف اللغة توظيفاً غير مألوف، باستخدام تكثيف دلالى، فإن فعالية الخطاب تكون أكثر تأثيراً لو أثارت حفيظة المتلقى. ومقدرة الجاحظ على الإثارة لا تتوقف، لأنه أتى بنماذج مكروهة للمتلقى، ووضعها فى منزلة أفضل من هذه الطائفة التى لا تراعى آداب الطعام، فالمجوس الذين يزمزمون عند الأكل أفضل من اللعموظ والجردبيل... ولا تتوقف آليات الإثارة عند هذا الحد وإنما يزيد من تكديس الفكرة بالتكديس فى النصوص يقول:

- "هذا على الأسوارى أكل مع عيسى بن سليمان بن على، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة، فائقة السمن، فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز شحما، وقد كان غص بلقمة، وهو المستسقى، ففرغ من الشراب، وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة... فلما خاف على الأسوارى الإخفاق، وأشفق من الفوت، وكان

أقربهم إليه عيسى، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازى"(٢٠).

آلية النص فى هذا الخطاب لا تعتمد على نقل الواقع، وإنما هى تحويل للواقع وإعادة تشكيله، باستخدام وسائل متعددة منها القص الذى كون منه بنية علامية قائمة على متناقضات كثيرة منها عدم احترام الجليس أثناء الطعام، بل وخطف ما فى يده، حتى لو كان هذا الجليس أميرا عباسياً.

ولقد صعد الجاحظ فى حدة الخطاب فى نصوص هذه المجموعة إلى مرحلة من الإدهاش الخطابى، ويعد النص التالى تتمة لها يقول على لسان إحدى الشخصيات:

"ما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقًا، فبلع ضرسه وهو لا يعلم... وكان إذا أكل ذهب عقله، وجحظت عينه، وسكر وسدر وانبهر، وتربد وجهه، وعصب ولم يسمع ولم يبصر. فلما رأيت ما يعتريه، وما يعترى الطعام منه، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى. ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمراً إلا استفه سفا وحساه حسوا، وذراه ذروا، ولا وجده كنيزا إلا تناول القطعة كجمجمة الثور... ولا نزع قمعا ولا نفى قشراً، ولا فتشه مخافة السوس والدود"(٢١).

ورغم أن هذه النصوص تنتمى - كما سبق القول - لنفس إيديولوجية انحراف الدلالة للإيحاء بمدلول آخر، فهى طريقة الجاحظ بفن خطابه متعدد النبرات. فإذا كانت الدلالة فى المجموعة الأولى من المتتاليات الخطابية تشتمل على إيحاء يوجد فى جملة أو جملتين من النص، فإن المجموعة السابقة، قد اشتملت فى كل جملها على هذا الإيحاء بهدف لفت الانتباه لهذه التصرفات الشاذة بتغريب الأحداث المألوفة، بحيث يدرك المتلقى أن للطعام آدابًا، منها احترام الطعام نفسه، واحترام جليسه، والإنكار الشديد لحيوانية المؤاكلة والتهام الطعام، وأن حيوانية المؤاكلة من سمات الوحوش وفى جمل قليلة يشعر القارئ أنه قد مر عليه دهر من هذه الهمجية فى الأكل "هذه التقنية فى إرجاء الأحداث، أو تطويلها تدفعنا إلى أن نوليها انتباهنا فنكف عن إدراك

المشاهد والحركات المألوفة إدراكًا آليًا وبذلك نسقط عنها الألفة"(٢٢).

* وهذه متتالية أخرى من نصوص الخطاب لنفس الإيديولوجية، لكنها تحمل دلالة جديدة:

قال الجاحظ: "أما ابن أبى المؤمل، فقد اشترى مرة شبوطة، وأخذها فائقة عظيمة... فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها... هجمت عليه ومعى السدرى، فلما رآه رأى الموت الأحمر، والطاعون الجارف... وعلم أنه قد ابتلى بالتنين، فلم يلبثه السدرى حتى قوّر السرة بالمبال، فأقبل على فقال لى: يا أبا عثمان السدرى يعجبه السرر... فلم يدر إلا والسدرى قد اكتسح ما على الوجهين جميعًا"(٢٣).

رغم أن هذا النص قد أجرى مقارنة بين متقابلين، أحدهما شره أنانى، يريد الاختباء بالطعام، وأن الآخر شره طفيلى يدعو نفسه دون دعوة، بما يبقى توتر الدلالة بينهما ملحوظًا، فإن الجاحظ يزيد هذه المقابلة توتراً حين قال: هجمت عليه ومعى السدرى. فلم أقحم الجاحظ نفسه؟

"إن الكلمات علامات اجتماعية فعالة دينامية، قادرة على تقبل دلالات مختلفة لدى الطبقات الاجتماعية المختلفة، فى المواقف الاجتماعية والتاريخية المختلفة"(٢٤).

فهذا النص من الخطاب علامة على صراع بين إيديولوجيتين أشعلهما الجاحظ، كأنه جاء ليعرض أقطابا شديدة التنافر، شديدة التنفير للمتلقى بغرض إيحائى ضاغط يكمن فى كل أنحاء النص، ويكمل هذا التوتر بنص آخر من نفس الخطاب يقول:

"كان قاسم "التمار" شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المؤاكلة، وكان أسخى الناس على طعام غيره... وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة، ولا بالتجمل قط، فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة، حتى يجر معه ابنه إبراهيم... فأتوه يومًا بقصعة ضخمة، فيها ثريدة كهيئة الصومعة، مكللة بإكليل من عراق... فأخذ قاسم الذى يستقبله، ثم أخذ يمنه، وأخذ ما بين يدى من كان بينه وبين ثمامة، حتى لم يدع إلا عرقًا

قدام ثمامة، وعارضه ابنه وحكاه، فلما نظر ثمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع. مسلوبة عارية، واللحم كله بين يديه وبين يدى ابنه إلا قطعة واحدة بين يديه، تناولها فوضعها قدام إبراهيم ابنه، فلم يدفعها، واحتسب بها فى الكرامة والبر. فقال قاسم لما فرغ من غذائه: أما رأيتم إكرام ثمامة لا بنى"(٢٥).

إن القصص هنا أيضًا بنية علامية فى النص، يزيد ترابط الخطاب، ويحقق وظيفة جمالية تؤكد أن هذه النصوص ليست نصوصًا جامدة، وإنما هى نصوص متحركة الأبعاد تزيد التوتر بين الأدب والمجتمع، والعنصر الدلالى فى النصين السابقين ظاهر يوحى بأفعال يجب التخلص منها، تنصب على التطفل الشديد، وتتأثر بنسق آخر فى الخطاب هو سوء الأدب على الطعام. إن ملامح التوتر فى النصين قد انعكست على المضيف أو المقرئ. فالأول وهو ابن أبى المؤمل أصابته الحمى ولزم داره حزنا على طعامه لأنه أنانى. أما الآخر وهو ثمامة فلم يملك إلا أن وضع اللحم كله بين يدى قاسم التمار وابنه حنقا وغيظًا وعجبًا. وهذه الدلالة الموجودة فى النصوص متجددة فى كل عصر، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن الأدب لو كان مجموعة ثابتة من الأعمال الأدبية، أو مجموعة متعينة من الوسائل، أو كمية ثابتة من الأشكال والأنواع بل إن إضفاء شرف القيمة الفنية على موضوع هو فعل اجتماعى لا ينفصل عن الإيديولوجيات السائدة.

* أما مجموعة النصوص فى هذه المتتالية، والتى تنتمى لنفس أيديولوجية الخطاب فمنها ما حكاه الجاحظ، من "أن بلال بن أبى بردة كان رجلا عيابا، وكان إلى أعراض الناس متسرعًا فقال للجارود: كيف طعام عبد الله بن أبى عثمان، فقال: يعرف وينكر، قال: فكيف هو عليه! قال: يلاحظ اللقم، وينتهر السائل.... قال: فكيف طعام تسنيم بن الحوارى؟ قال: نقط العروس... حتى أتى على عامة أهل البصرة... فلم ينج منه إلا من كان يبعده، كما لم يبتل به إلا من كان يقربه"(٢٦).

- "أجلس معاويه، وهو فى مرتبة الخلافة رجلا على مائدته، مجهول الدار، غير

معروف النسب، فأبصر فى لقمته شعرة فقال: خذ الشعرة من لقمتك. فقال الرجل: وإنك لتراعينى مراعاة من يبصر معها الشعرة؟ لا جلست لك على مائدة ما حييت"(٢٧).

- "قيل للجماز: رأيناك فى دهليز فلان، وبين يديك قصعة وأنت تأكل. فمن أى شئ كانت القصعة؟ وأى شئ كان فيها؟ قال: قيئ طلب فى قحف خنزير"(٢٨).

النصوص الثلاثة السابقة اتخذت الحوار أداة للخطاب، مع وضوح الدوال فى النصين الأول والثالث حيث يبدو الإيحاء ظاهر المدلول من حيث فضول السائل وغلظه وخشونة المسئول، أما النص الثانى، فتأتى الدلالة فيه فى آخر جملتين، ممثلة فى الانحراف اللغوى للإيحاء بعلامة أخرى تكمن فى أن اللوم قد لا يصدر عن علية القوم ممثلاً فى شخص الخليفة معاوية، وإنما من جليسه هذا النكرة الذى لقنه درساً فى وقاحة الناظر إلى الطعام ومراقبة آكله.

إذن هذه النصوص الثلاثة وإن اختلفت موضوعاتها تشير إلى أن للطعام آدابًا هى من فنون الرقى الحضارى، ومتى تخلى الإنسان عن آدابه فقد تراجعت خطواته، ليرزح تحت تأثير التخلف.

إن هذه المناظر تؤذى وتؤلم النفس، فما أبعد المسافة بين الغلظة فى تناول الطعام، والتأنى والاستمتاع به، وقد أشار طه حسين بصفته أديباً معاصراً إلى هذين الصنفين مقارنا بين سلوك الطبقات الراقية والمتخلفة فى تعاملها مع الطعام يقول "ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التى يلقى فيها الطعام إلقاء على عجل، فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرده الحلوق، وكأن الطبيعة لم تودع هذه الأفواه حسا تجد به لذة ما تأكل وما تشرب، وإنما اتخذتها طريقا إلى الحلوق ثم إلى الأجواف، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التى لم تكن تفتح إلا بمقدار، والتى لا تلتهم ولا تلتقم، وإنما تطيل المضغ، وتستمتع بما يمسها من الألوان... كأنما الأكل من الفنون"(٢٩) فالإنسان هو الإنسان فى أى عصر".

(ب) أما المجموعة الثانية ذات الرموز الصغرى القائمة على الإيحاء الظاهر، فهى تلك التى تشير إلى دال العلاقات الاجتماعية السلبية المنتمية لخطاب التخلف الحضارى، وهذه المجموعة من النصوص تتشعب دوالها، إلا أنها تشترك فى علاقة واحدة هى السلوك العام فى المعاملات الإنسانية على النحو التالى:

١- قبح الهيئة والملبس: كما فى قصة ليلى الناعطية "فإنها مازالت ترقع قميصا لها وتلبسه، حتى صار القميص الرقاع، وذهب القميص الأول، ورفت كساءها ولبسته، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو، وذهب جميع الكساء، وسمعت قول الشاعر:

البس قميصك ما اهتديت لجيبه فإذا أضلك جيبه فاستبدل

فقالت: إنى إذن لخرقاء. أنا والله أحوص الفتق، وفتق الفتق، وأرقع الخرق، وخرق الخرق"(٣٠).

والإيحاء فى هذا النص يقوم على المفارقة بصفتها درجة من درجات الانحراف عن السلوك العادى، وتشمل المفارقة جميع النص ممثلة فى حرص ليلى الناعطية على ترقيع كسائها وما فيه من أذى للناظرين، ورسالة الشاعر التى تحرض على التشويه بأن يُلبس الثوب من أى مزق.

٢- الجفاء: "وهو من نوادر المدائنى... إذ "كانت له حلقة يعقد فيها أصحاب الغنية والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح، فبلغهم أن أبا سعيد المدائنى يأتى الخربة فى كل يوم ليقتضى رجلا هناك خمسة دراهم فضلت عليه، وقالوا: هذا خطأ عظيم وتضييع كثير... فاجتمعوا عليه عن طريق التفرغ له... قالوا... خبرنا عن مضيك إلى الخربة لتقتضى خمسة دراهم... فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق، وعليك ثيابك والحمولة تستقبلك، فمن هنا نترة، ومن هنا جذبة، فإذا

الثوب قد أودى، ومن ذلك أن نعلك تنقب... ولعلك أن تعثر في نعلك فتقدها قدا... وبعد فاقتضاء القليل أدى بل إلى هذا؟

قال أبو سعيد:... وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل، فإني من لدن خروجي من منزلي إلى أن أقرب من باب صاحبي، فإنما نعلي في يدي، وسراويلي في كمي، فإذا صرت إليه لبستهما، فإذا فصلت من عنده خلعتهما..."(٣١).

يقدم منشئ الخطاب علاقات دلالية متنوعة ومتجددة، فيشعر المتلقي بأن النص ليس مجرد فكرة "ولكنها عنصر داخل في تكوين الفن الذي لا يوجد خارج نطاق التلقي"(٣٢) إن تلقي هذه الفكرة ليس مجرد فكرة نفسية عن طائفة من أصحاب الجمع والبخل، ولا فكرة الحفاء التي تؤذي العين، وإنما الإيحاء بالإحساس الفني من غرابة هذا التصرف، لأنه ليس نتاج عجز أو عوز، وإنما نتاج عدم رقي وضياع ذوق، وفردية شديدة تقتضي العزلة عند ارتكاب هذا الفعل، إذ كيف يمشي ونعله في يده؟ ومن ثم فإن هذه الشريحة من البشر حين يعبر الفن عنها بهذه الصورة "لابد وأن تخضع للعرف الجمالي الذي يكسرها مثلما ينكسر الضوء في انتقاله من وسط لآخر"(٣٣) إن جمال هذا النص لا ينبع من انعكاس تصور المجتمع لقضية ما في الأدب، وإنما جماله يأتي من هذا التركيب الفني في قول أبي سعيد: فإنما من لدن خروجي من منزلي إلى أن أقرب من باب صاحبي، فإنما نعلي في يدي وسراويلي في كمي، فإذا صرت إليه لبستهما" ويأتي جماله من غرابة التصرف وغرابة التصور، وغرابة تكوين الجمل، بما ينعكس بضغط شديد على مدلول القضية.

٣- السوقية: "دخل إسماعيل بن غزوان إلى بعض المساجد يصلي، فوجد الصف تامًا، فلم يستطع أن يقوم وحده، فجذب ثوب شيخ في الصف ليتأخر فيقوم معه، فلما تأخر الشيخ، ورأى إسماعيل الفرج، تقدم فقام في موضع الشيخ، وترك الشيخ قائماً خلفه ينظر في قفاه، ويدعو الله عليه"(٣٤).

إذا كانت بعض النظريات البنائية ترفض أن يكون المؤلف أصل النص، ومصدر معناه، والسلطة الوحيدة لتفسيره، ومن هؤلاء "بارت الذى يمثل مرحلة ما بعد البنيوية وعبر عن ذلك فى مقاله له "موت المؤلف سنة ١٩٦٨"(٣٥) حيث يدعو إلى استقلال العمل الادبى عن مؤلفه أو اكتفائه بنفسه، فإن هذه الدعوة لا تنطبق على هذا النص فهناك صلة خفية بين الجاحظ وبينه، فهو كاتب أو أديب المضحكات المبكيات المتفرد فى هذا الباب، إذ المقام الذى يتحدث عنه هو مقام تعبد، ومع ذلك فالتصرفات سوقية ذات دلالة عميقة قائمة على المتناقضات، فإقامة الصلاة ليست دلالة على الكمال، وإلا فما تفسير أن يصلى المصلى ثم يسرق من معه فى المسجد؟!

٤- الرعونة: "رفع يحيى بن عبد الله... رغيفا من خوانه بيده، ثم رطله، والقوم يأكلون. ثم قال: يزعمون أن خبزى صغار. أى ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين"(٣٦) يوحى هذا النص بالجهل بآداب الحديث، أكثر من إيحائه بأى شئ آخر، وهذا النوع من السياق يدركه دارسو المجتمع، لأن حقائق التركيب اللغوى يزيد من فهم هذا المجتمع "وكذلك فإنه من الصعب أن نجد فى خصائص المجتمع ما يمكن أن يكون أكثر تمييزاً للمجتمع من لغته"(٣٧) إن المضيف بدلا من أن يرحب بضيفه، ويقدم واجب الضيافة، سبهم على الطعام مدركًا ما قال أم لم يدرك.

٥- القذارة "... نظر (أبو قطبة) يوماً إلى الكساحين... وهم يخرجون ما فى بالوعته، ويرمون به فى الطريق... فقال: أليس البط والجداء والدجاج والفراخ والدراج وخبز الشعير... جميعًا يصيرون إلى ما ترون فلِمَ يُغالَى بشئ يصير هو والرخيص فى معنى واحد؟" (٣٨).

هذا الخطاب يصور حال شريحة اجتماعية لا تفرق بني النظافة والقذارة، أو بين المأكول وما تفيض به البالوعات، طالما أن الكل من وجهة نظرها سينتهى إلى مسار

واحد!! لقد أكسب الجاحظ هذا السلوك دلالة جديدة، جاوزت حد المألوف إلى عالم لا متناهى من الإيحاءات السلبية، منها على سبيل المثال أن العين التى لا تدرك الفرق بين هذين المتناقضين كيف ترتقى؟!

٦- فساد الذوق الجمالى: قال الكندى لساكنى داره:

"إن كثيراً منكم يدافع بالكراء، ويماطل بالأداء.. يسكنها الساكن حين يسكنها، وقد كسحناها ونظفناها لتحسن فى عين المستأجر، فإذا خرج ترك فيها مزبلة وخرابا، ثم لا يدع ترسا إلا سرقه ولا مراده إلا مضى بها معه ويدع دق الثوب والدق فى الهون، ويدق على الأجذاع والحواضن والرواشن، وإن كانت الدار مقرمدة، أو بالآجر مفروشة، دعاهم التهاون والقسوة إلى أن يدقوا حيث جلسوا وإلى ألا يحلفوا بما أفسدوا"(٣٩).

يقول الجاحظ فى التعريف بالكندى إنه كان بخيلاً، إلا أن ساكنى داره يحتملون بخله بسبب ظرفه، لكن ما قاله الكندى لا يجعل حديثه منغلقًا على البخل، وإنما هو خطاب مفتوح على كثير من القضايا الفلسفية والثقافية والنفسية، يعنينا منها النص السابق فى بيان فساد الذوق، حيث عدد الكندى كثيراً مما يرتكبه مكترو الدور من إهمال وإفساد يخاصم الذوق السليم.

٧- نشر البدع والضلالات: يتحدث الجاحظ عن أبى قطبة وأخوته يقول: "هم ثلاثة أخوة: أبو قطبة، والطيل، وبانى من ولد عتاب بن أسيد، واحد منهم كان يحج عن حمزة ويقول: استشهد قبل أن يحج، والآخر كان يضحى عن أبى بكر وعمر ويقول: أخطأ السنة فى ترك الضحية، وكان الآخر يفطر عن عائشة أيام التشريق ويقول: غلطت رحمها الله فى صومها أيام العيد، فمن صام عن أبيه وأمه، فأنا أفطر عن عائشة"(٤٠).

إن ترك الأصول والتشبث بالفروع وسيلة للانحراف والتضليل، ووظيفة الأدب الغوص لاستخراج المعانى لأن "الشفرة الدلالية تهتم بالمعانى الضمنية التى يستثيرها التشخيص أو الوصف فى كثير من الأحيان"(٤١) والمعنى هنا دلالى متضمن فى النص ويشير إلى قضية واحدة، هى تخطيئ أعلام الدعوة الإسلامية الذين أخذت عنهم الأمة علوم الدين.

٨- الاحتكام للهوى وإهمال العقل:

"كان (أسد بن جانى) طبيبا فأكسد مرة، فقال له قائل: السنة وبئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة... فمن أين تؤتى فى هذا الكساد؟ قال: أما واحدة، فإنى عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب، واسمى أسد، وكان ينبغى أن يكون اسمى "صليبًا" و"جبرائيل" و"يوحنا"... وكنيتى أبو الحارث، وكان ينبغى أن نكون "أبو عيسى" و"أبو زكريا"... وعلىّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغى أن يكون ردائى حريراً أسود..." (٤٢).

دلالة هذا النص على المخزون الثقافى لمجتمع ما، نوع من الإشارة لما يمتلكه من المعرفة التى ينتجها المجتمع، ودلالة على النظرة السطحية للأمور فلا تضر المجتمع الجاهل فقط، وإنما أيضًا تفسد على العلماء علمهم وتكسدهم، وعليه كى يرتفع سهمه أن يهمل عقله، ويسير وفقًا لأهواء لا يحكمها منطق.

وبذلك نرى أن نصوص الخطاب قد صورت شرائح من المجتمع فى علاقاتها الاجتماعية وفى دلالات تشى بالتأخر، فهى فى تناولها للطعام تلتهم وتزدرد وتلتقم، ولا ترحم من يؤاكلها، بل تخطف وتلوث. إن تناول الطعام فن من الفنون التى تحرص عليه الأمم المتحضرة. كما تابع الجاحظ أخطاء نماذج من البشر، من خلال طرافة علاقاتهم الغريبة، فقدم ألوانا من السلوك اليومى ممثلاً فى الملبس والمسكن والتعاملات... موحيًا بدلالات فنية متنوعة تحفر فى ذهن المتلقى تجارب سلبية يجب التخلص منها.

المجال الثانى للخطاب

علامات أخيرة ملاحظة فى الخطاب

تُعدّ هذه العلامات عناصر مهيمنة أو مرتكزات، وإن بدت غائبة، إلا أن شفرات النص لا تتم إلا بها، وتتردد فى نصوص الخطاب مفردات متعددة قد يشير ظاهرها إلى ما يناسبها فى السياق الخطابى ذى الدال الواحد، أى للحديث المتداول بين الشخصيات فى الرسالة الظاهرة، إلا أن هذه المفردات قد تتخذ علامات جديدة ينفخها فيه النص، فتصبح رمزاً لدال جديد من خلال نظام الجمل.

ورغم تشعب نصوص الخطاب - كما رأينا فى الجزء السابق - فإن الشفرة واحدة، وإن كانت فى بعض النصوص ظاهرة، أو غائبة فى بعضها الآخر.

هذه المفردات قد تبدو فى ظاهرها منعزلة، إلا أنها تصبح أكثر قيمة إذا فرضنا عليها ترتيبًا خارجيًا من خلال تنسيقها لاكتشاف نظامها. وهذه المفردات الدالة طبقًا للسياق والتركيب والتى تعد من قبيل المفاتيح أو الشفرات هى:

١- أسماء أعلام صريحة دالة على العنصر المهيمن لكنها لا تدرك مباشرة نظراً لتقطعها وبعثرتها فى النصوص.

٢- مفردات تنتمى إلى علم الإشارات.

٣- مفردات ذات دلالات عكسية.

٤- عنصر غائب تدرك دلالته من ربطه بالتطور اللغوى.

أولاً: أسماء أعلام صريحة دالة على العنصر المهيمن:

إذا كان خطاب الجاحظ يدور على عنصر مهيمن موجود فى جميع النصوص، وإن اختلفت المعانى التى تشير إليه، فإننا نجد مفردات صريحة لا تشير إلى هذا العنصر إلا بشفرة، وإذا عرفنا هذه الشفرة استطعنا أن نصل لهذا العنصر، فتتداعى دلالاته، ونجد

هذه المفردات الصريحة فى أسماء أشخاص لو عرفنا سيميولوجيتها أضاء لنا النص الغائب من عناصره.

مثل الربط بين المسمى والمهنة التى يمارسها صاحبها، أو ربطها بقاع المجتمع أو الربط بالتحقير، أو التصرفات، فبمجرد النطق بها طبقًا لهذه العلامة تنثال. والجاحظ أصلاً لم يخترع هذه الأسماء، وإنما هى أصلاً موجودة فى المجتمع فى عصره وقبل عصره، وهو نفسه يصرح بذلك يقول "أما الصاحب فإنا لا نسميه لحرمته، وواجب حقه، والآخر لا نسميه لستر الله عليه، ولما يجب لمن كان فى مثل حاله، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين، ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يمازح بهذا كثيراً"(٤٣).

وهذه الشخصيات تصدر أفعالاً مستهجنة من خلال علاقتها بالآخرين وتناهض الحس الحضاري ووردت مشفوعة بأرقام الصفحات فى كتاب البخلاء كما يلى:

الجارود: يعيب طعام من يضيفه ويخرج أسراره، ص ٧٩-٨٠

أبو الحارث جمين: لظرفه يضيفه الناس، فيقترح الطرائف ويشتهى الغرائب من الطعام، ص ٧٩

ابن سلام الشبى: يهين الجار أمام ضيفه، ص ١٢٧

أبو شعيب القلال: يتهم مقريه بالبخل، وأن طعامه يوضع للزينة وليس للأكل، ص ٨٠

الجماز: خشن الكلام جافى الطباع، ص ٨١

السدري: طفيلى شره يقري نفسه دون دعوة ويكتسح ما أمامه من طعام، ص ١٦٧

معاذة العنبرية: لطخت القدور بدم الأضحية بدعوى زيادة متانتها، ص ٤٣

أسد بن جاني: طبيب كاسد يؤمن أن كساده يأتى من كونه مسلماً، ص ١٠٩

قاسم التمار: قذر المؤاكلة يسيئ الأدب فى تناول الطعام، ص ١٩٨

ابن الخاركي: نفاج يرى أن سقوط الذباب في القصاع تنظيف لها، ويشهى الطعام لآكله، ص ١٣٣

أبو القماقم: بخيل دنئ يقبل أن تنفق الزوج عليه، ص ١٣١

أبو قطبة: يلقى ما في بالوعته في الطريق، وحج عن حمزة مدعيًا أنه استشهد قبل ان يحج، ص ١٢١

الطيل: يضحى عن أبى بكر وعمر ويقول إنهما أخطأ في ترك الضحية، ص ١٢١

بانى: يفطر عن عائشة، ويقول إنها صامت أيام التشريق، ص ١٢١

الغزال: يأكل الطعام ثم يعيد بيعه، ص ١٢٧

جرير العطرق: أخذ طعاما من بين يدى عامل البصرة فعزله، ص ١٥٧

إن ثقافة المجتمع هي التي تفرز هذه الأسماء، وهي التي تلصقها، بأصحابها لأفعال صادرة عنها، أو أن ثقافة المجتمع نفسها متخلفة، والجاحظ نفسه يقول: لقد ابتليت بهذا.

ثانياً: مفردات تنتمي لعلم الإشارات أو العلامات:

حيث يقدم من خلال السياق الدلالي علامات تنم عن الشفرة من خلال اللغة بأنظمتها النحوية والمعجمية والصرفية، موافقة ما ابتدعه العالم السويسري "دى سوسير" الذى يرى أن اللغة ليست بنظامها المركب الدقيق سوى مظهر لحياة العلاقات الاجتماعية(*)، فهذه المفردات المختزنة في بطون المعاجم العربية، قد عفّى عليها الزمن حتى من زمن الجاحظ نفسه، فهي من ألفاظ الغريب وبالتالي حرص على تفسيرها لغوياً لأنها ذات علاقة دالة على النحو التالي:

الأعرابى: شر من الحاضر، سائل جبار، وثابه ملاق[٤٤].

قال أبو الفاتك: الفتى لا يكون نشالاً: والنشال الذى يتناول من القدر قبل الأكل.

ولا نشافا: والنشاف الذى يأخذ حرف الجردقة فيفتحه ثم يغمسه فى رأس القدر ويشربه الدسم ويستأثر بذلك دون أصحابه.

ولامرسالا: الذى فى فمه لقمة، ثم يلكمها بأخرى قبل إجادة ضمغها أو ابتلاعها.

ولامصاصا: الذى يمص جوف قصبة العظم بعد أن استخرج مخه واستأثر به دون أصحابه.

ولانفاضا: الذى إذا فرغ من غسل يده فى الطست نفض يديه من الماء على أصحابه.

ولادلاكا: الذى لا يجيد تنقية يديه بالأشنان، ويجيد دلكها بالمنديل.

ولا مقورا: الذى يقور الجرادق ويستأثر بالأوساط ويدع لأصحابه الحروف.

ولا مغربلا: الذى يأخذ وعاء الملح فيديره إدارة الغربال ليجمع أباريزه ويستأثر به.

ولا محلقما: الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه.

ولا مخضراً: الذى يدلك يده بالأشنان من الغمر والودك حتى إذا اخضر واسود من الدرن دلك به شفته.

ولا نهاشًا: هو الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع(٤٥).

هذه الألفاظ الممتلئة خشونة وغلظة تناسب المرحلة البدائية فى حياة الإنسان وعندما يرتقى تتبدل ألفاظه، ولعل الجاحظ أدرك ذلك حين قال: "وكما لا ينبغى أن يكون اللفظ عاميا وساقطًا سوقيا، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريبًا وحشيًا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابياً، فإن الوحشى من الكلام لا يفهمه إلا الوحشى من الناس... وكلام الناس فى طبقات، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات"(٤٦).

فالاستعانة بالغريب من الناحية اللغوية دلالة على البداوة والوحشية وهذا الغريب أحد أنظمة التشفير. كما أنه بنظامه الصوتى النحوى الصرفى يضبط هذا التشفير، مثل الاعتماد على صيغ المبالغة فى الكلمات السابق ذكرها بما تفتح به مضامين حركية عالية الضجيج تناسب المضغ والبلع وحركات الأيدى والشفتين. أيضًا ما تحمله هذه الأصوات من دلالات فنولوجية صوتية ذات جرس صوتى حاد لتكرار أصوات الجهر والشدة والتفخيم وهى من علامات الخشونة كما فى ألفاظ: اللعموظ والجردبيل والمغربل والواغل والنقاض... فهى أصوات تجمع وظائف فنولوجية غير حضارية المعنى والنغم فتثقب الأذن بتنظيمها الصوتى ذى المد الطويل المتكرر.

فقد كان من الممكن أن يستخدم الجاحظ ألفاظًا أخرى تؤدى الغرض إلا أن التشفير لابد أن يعتمد على هذا التركيب الصوتى، هذا على المستوى الأفقى لخاصية كل كلمة، أما على المستوى الرأسى، فقد أكثر الجاحظ من المعطوفات، لما لها من طنين يناسب حركة الآكلين، وكاد يقترب فى هذه الصياغة من لغة الشعر فى عاطفتها الجياشة، وبما يجعل المتلقى يدرك أن هذا التركيب ليس عاديًا، وإنما موجه نحو مفاتيح شفرته حتى لو اعتمد على ألفاظ مهملة فى بطون المعاجم، فهذا كله لصالح التشفير اللغوى.

ثالثاً: مفردات ذات دلالة عكسية:

تدل على العنصر الغائب والمهيمن على الخطاب، ويعتمد الأديب فيها "على مادة مبذولة فى الحياة مستهلكة ومستخدمة لوظائف الاتصال اليومى ليقيم فى داخلها نظامًا فنيًا جديداً، يعتمد شفرة موضوعية وجمالية وتقنية، مخالفة لشفرة اللغة والثقافة المألوفة، ومتراكمة فوقها فى نفس الوقت"(٤٧). حيث يعمد إلى ألفاظ مبذولة فى الحياة اليومية مستخدمًا إياها، ومعتمداً على عنصر التضاد اللغوى الذى يعطى المعنى وعكسه فى نفس الوقت ولا تنضبط الشفرة إلا بهذه الطريقة مثل:

* "الموفقون" فى قوله (قال لى بعض الموفقين: عليك بماء النخالة فاحسه حارا

فحسوت، فإذا هو طيب جداً، وإذا هو يعصم" فقالت الزوجة ".... أرجو أن يكون الله جمع لك بهذا السعال مصالح كثيرة"(٤٨).

حيث ترتكز العلامة الدالة فى قوله (قال لى بعض الموفقين" فعلى مستوى الألفاظ العادية، تشير الجملة إلى البخل، لكن الجاحظ يريد المعنى المضاد الغائب، ويُفهم ذلك من السياق، حيث لم يشر السياق إلى نجاح علاج السعال، وإنما أشار إلى المصالح الكثيرة المترتبة على الإصابة به. ويزيد الجاحظ تراكم العلامات لتزيد وضوح الشفرة بإضافة حكم وأمثال مألوفة فقد اختلط فيها الأمر على القوم مثل قوله فى نهاية النص: قال القوم - لمحدثهم - صدقت. مثل هذا لا يكتسب بالرأى، ولا يكون إلا سماويا"(٤٩).

* "المصلحون فى قوله" جلس الثورى إلى حلقة المصلحين فى المسجد، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول: بطنوا كل شئ لكم فإنه أبقى... فبطنوا البوارى وبطنوا الحصر، وبطنوا البسط، وبطنوا الغذاء بشربة باردة"(٥٠).

إن العنصر الغائب يتحقق بدلالات معكوسة، فالمصلح هنا - وهو المتحدث - ينصح بالترقيع والتشويه فى كل شئ، ثم يضيف تقنية جمالية وظف فيها لغة الحياة اليومية المألوفة فى غاية غير مألوفة هى قوله: "بطنوا الغذاء بشربة باردة" إذ لا فرق بين تبطين البسط وتبطين الغذاء مادام الغرض هو التشويه الذى ترتكز عليه الشفرة، وهذا المصلح لا يقدم النصيحة، وإنما هى تقنية تزيد النص إحكامًا بالارتكاز على صيغة الأمر التى كررها خمس مرات.

* الصالحون: فى قوله ".. فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى ثم ضرب بها الأرض ثم قال: لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين(٥١)".

هذا النص لا يعبر عن حقيقة واقعية ينقلها أو يبثها الجاحظ، فقراءة النص بهذه

الصورة تضيق معانى العلامات، وإنما هى طريقة إيديولوجية فى الكتابة يستخدم فيها رموزا فنية بأسلوبه تقوم على تعدد النبرات "ولكن تعدد النبرات الذى هو سمة حيوية وأساسية للعلامات اللغوية يغدو واضحًا فى أوقات الاضطراب الاجتماعى عندما تتصادم المصالح المتباينة للطبقات، وتتقاطع على أرض اللغة"[٥٢] حيث يبدو ظاهر النص مجسدا التصارع على التوفير، فصاحب الحمار - كما فى نص الخطاب - يشقى بإسرافه عندما يسقى حماره الماء العذب لما نفر الحمار، وأصاب جوفه المرض من الماء المالح، واكتشف إسرافه هذا من حكاية معاذه العنبرية وحسن تدبيرها للذبيحة، فلم تترك منها شيئًا دون الانتفاع به، لكن هذا الظاهر ليس هو المقصود، وإنما هناك عنصر غائب يلح الجاحظ على إبرازه، هو عنصر ضيق الأفق الذى لا يشعر به من يعيشون فى كل هذا الشقاء، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا بالتوفير، ومن ثم فهم صالحون، لكن الحقيقة هم فى غاية التخلف، ولتأكيد هذا التناقض ورد الطباق فى قوله (لا تعلم أنك من المسرفين، حتى تسمع بأخبار الصالحين" فهم يتصورون شيئاً، والواقع شئ آخر.

رابعاً عنصر غائب يُدرك من ربطه بالتطور اللغوى:

تحفل المصادر التراثية بكثير من المواقف التى تعالج نفس الخطاب، وتشير إليه بمصطلحات كثيرة، لكنها فى الأصل لا تخرج عن نمط المدلول لأن مصطلح التخلف الحضارى لم يكن أخذ حيزا وجودياً فى حياة المجتمع أو اللغة، لكن إيديولوجيته كانت موجودة، وهناك أمثلة على ذلك. مثلا يشير ابن قتيبة لهذا فى كتابه عيون الأخبار قائلاً: "استأذن رجلان على معاوية، فأذن لأحدهما، وكان أشرف منزلة من الآخر، ثم أذن للآخر فدخل عليه، فجلس فوق صاحبه. فقال له معاوية: إن الله قد ألزمنا تأديبكم، كما ألزمنا رعايتكم، وإنا لم نأذن له قبلك، ونحن نريد أن يكون مجلسه دونك، فقم لا أقام الله لك وزناً"[٥٣].

لقد تولى الخلفاء بأنفسهم تأديب الرعية وتعليمهم، بعقابهم إذا أساءوا واحتاجوا

للإصلاح، ولم نجد لديهم لفظا صريحًا يدل على التخلف، لكن مقصديته موجودة، فهي عند معاوية تأديب، وعند غيره تقصير كما في هذه الحادثة التي أوردها الجهشياري بقوله في كتاب الوزراء والكتاب "أنكر أبو جعفر (المنصور) على محمد بن جميل شيئًا فأمر ببطحه، فقام بحجته وأزال ما ادعى عليه، فأمر بإقامته، ثم لحظ سراويله، فإذا هو كتان، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً، فأمر به فبطح، وضربه خمس عشرة درة، وقال: هذا جزاؤك على سوء اختيارك في لبس مثل هذا السراويل فلا تعاوده. وكان محمد بن جميل يتقلد ديوان الخراج"(٥٤).

إن التصرف في الروايتين يحمل معنى واحداً هو العقاب على تصرفات تخل بالرقي الحضاري، وإن لم يستخدم فيهما ألفاظًا محددة، لكنها ترادف مدلول الخطاب الذي عالجه الجاحظ، ونفس هذه المرادفات نجدها في كتاب البخلاء، وإن كانت أقل بروزاً كقوله:

- "كان قاسم شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المؤاكلة...، وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط"(٥٥)...
- "إني لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ماذمه، وبعض ما شنعه وقبحه فشئ يقبح بالشطار، فما ظنك به إذا كان من أصحاب المروءات وأهل البيوتات؟" (٥٦).
- "إنكم تشيرون على بملابسة شرار الخلق، وأنذال الناس"(٥٧).
- "ليس كل بخيل لئيما، لأن اسم اللئيم يقع على البخل، وعلى قلة الشكر وعلى مهانة النفس"(٥٨).

هذه المفردات التي فوق الخط تحمل في دلالاتها على العنصر الغائب، ما فيه من الثبات، وما فيه من التطور، لأنها ألفاظ حية في لغتنا المعاصرة، ولم تهملها معاجم اللغة، إلا أن دلالتها اللغوية قد تغيرت، فهي ثابتة في المعاجم، وربما وظفها الجاحظ

كإيحاء بمدلول ظاهر إلا أن تطور اللغة قد غير معناها وأصبح الانتباه لمعناها القديم أداة أو مفتاحاً لشفرة الخطاب، إذ إنها تشير للظاهر والغائب معًا وتطابقهما، وإن كانت هذه المفردات أكثر تحديداً الآن، وتعتمد فى تصور دلالات الألفاظ على ثنائية الثابت والمتحول أو المتطور، فالثابت "الذى يعبر عن العلاقات القائمة بين الأشياء المتعايشة، مع استبعاد أى تدخل لعنصر الزمن"(٥٩).

فالمفردات فى حالة الثبات اللغوى تسير طبقًا لاستخدامها القديم بطريقة تجعلها حية ومتداولة حديثًا كما كانت تتداول قديمًا، وتعبر عن المواقف المختلفة، ومن ثم هى من قبيل المرادفات لمعانى التأخر والتخلف - طبقًا لما ورد فى النصوص - أما التطور اللغوى الذى أصابها، فهو أن معناها قد أصبح ذا دلالات جديدة قد تبتعد بها الآن عن المدلول القديم مثل ألفاظ: الشطار، فالشاطر هو الفطن أو الفهيم طبقًا للمعاجم الحديثة، وما اصطلح عليه الناس حديثًا.

· اللئيم: بمعنى الخبيث طبقًا للمعاجم الحديثة، أو ما اصطلح عليه الناس...

ومن ثم لو نظرنا لمعناها الذى قصده الجاحظ، نجده يشير إلى هذا العنصر الغائب أو خطاب التخلف الحضارى، وهذا لأنه (لا يمكن لتاريخ اللغة أن تكون شيئًا آخر سوى تاريخ نظام لغوى، هذا النظام الذى يمر بتعديلات وتغييرات مختلفة)، لكن "من الخطأ الفادح الذى ينجم عنه كثير من الخلط أن نفصل بشكل قاطع بين المستوى التوقيتى والمستوى التطورى"(٦٠)، فهذه المفردات سواء أكانت فى صورة جمل اسمية أم فعلية أم أسماء أم أفعال، فهى دوال متعددة لعنصر غائب وهى مفتاح لشفرته.

خاتمة البحث

كان هدف هذا البحث، بيان أنه لا يعالج قضايانا غيرنا، ولا ننتظر من يعالج لنا عيوبنا، فنصيحة الآخر إن لم تكن مغشوشة، فهى على الأقل غير مخلصة، ومن ثم فإن أبناء الأمة، وما تركوه من آثار قديمًا وحديثًا هى أهم مصادرنا لعلاج أى قضية تؤرقنا كقضية التخلف الحضارى.

وبين البحث أن كتاب البخلاء للجاحظ من هذه الكتب التى تمس القضية، لأنه نموذج قديم لعلاج السلوك الإنسانى معالجة خالصة، وانقسم البحث إلى فصلين أحدهما نظرى وتناول دوافع خطاب الجاحظ، والآخر تطبيقى تناول مصطلح التخلف ودلالاته التى تشير إليه.

وارتكز الفصل الأول على دوافع الجاحظ للبوح والرغبة فى التواصل مع المجتمع وبما امتلكه من مقدرة على الإقناع، وبين البحث أن الهجمة الشرسة التى واجهها العرب من الفرس فى العصر العباسى هدفها إثبات تفوقهم، وإشعار العرب بضآلة عقولهم وتخلفهم، ومن ثم فقد تصدى الجاحظ لهذه الهجمة، مبينًا أن أبناء الأمة هم الذين يبصرونها بعيوبها، لأنهم يخلصون النصيحة، وليست تلك النصائح المزيفة التى قدمها الفرس لابسين مسوح المصلحين الاجتماعيين الزائفة، والدليل انه جعل مفتتح كتاب البخلاء رسالة لسهل بن هارون التى تقدم نصائح كاذبة للعرب.

ولقد بين البحث امتلاك الجاحظ من أدوات التواصل ما ساعده على النجاح فى توجيه خطابه؛ بالأحتكام إلى العقل، فأعلى من شأنه، ودعا أبناء أمته إلى تغيير عاداتهم، بالاعتماد على الكتب بدلا من السماع، لأنها أسرع فى التحصيل ومحاربة ما يفت العزم فى تلقى العلم، بالإضافة لذلك امتاز الجاحظ بصبره وطول أناته وتسلحه بعلم الكلام، فاستطاع أن ينبه أذهان العامة لخطاباته المختلفة.

وبين البحث أن الجاحظ فى تقديمه هذا الخطاب لم تكن الأمة العربية تعانى عجزاً أو

تخلفًا، وإنما كانت أرقى الأمم حضاريًا، وهى قضية غريبة، والأغرب أنه وجه هذا الخطاب للعرب الذين كانوا أفخر الأمم وأكثرها كبرياء، ومع ذلك فقد اقتنعوا بهذا الخطاب، لأنه خطاب صادق حقيقى هدفه إكمال جوانب النقص.

كما بين البحث أن الخطاب كان موجهًا لشتى الطبقات، فنجده أحيانا رسول الخاصة للعامة، وأحيانا أخرى رسول العامة للخاصة، كما بين أن الجاحظ نقل للعامة أحدث ما عرفته مجالس الخاصة من رقى حضارى، ما كانوا ليحصلوا عليه من مجالس العلم فى البصرة.

وبين البحث أن كتاب البخلاء حمل خطابين أحدهما ظاهر مباشر عن البخل وأعاجيب تصرفات البخلاء... والآخر غير مباشر وثانوى يتناول التصرفات المستهجنة التى تبتعد عن الرقى الحضارى وتندرج تحت التخلف.

أما الفصل الثانى فقد تناول مفهوم التخلف بين مصطلحه ودلالاته اللغوية والبنيوية من خلال التطبيق على النحو التالى:

بيان معنى التخلف الحضارى فى معاجم اللغة، ومتى أطلق هذا اللفظ، ومقارنة المعنى اللغوى بالاصطلاح الحديث، مبينا هل استخدم الجاحظ نفس المصطلح؟ وما المصطلحات الأخرى التى تناولها؟ وهل كان على وعى بالقضية وعمد إليها عمدا؟

وبين البحث أن الجاحظ رغم وعيه بهذا الخطاب، فإنه لم يرسل خطابا مباشراً يؤذى المشاعر، وإنما قدمه فى رسالة ودود تبتعد عن النقد الجارح.

وبين البحث أن خطابه ليس نصا واحداً، وإنما مجموعة نصوص تتبعثر فى داخلها دلالات الخطاب، ولكى يصل القارئ إلى مدلولها عليه التماس مفاتيحها أو شفرتها، ومن ثم فقد ارتكزت دوال الخطاب وعلاماتها على مجالين:

الرموز الصغرى التى تقوم بالإيحاء الظاهر بالمدلول أو علامات الحضور، والرموز

الكبرى أو العلامات السيميولوجية القائمة على عنصر غائب مهيمن على النصوص.

١- أما المجال الأول القائم على الرموز الصغرى، فقد تبين بالتطبيق أن الإيحاء بالمدلول سار في اتجاهين أحدهما التعامل مع الطعام والثاني العلاقات الاجتماعية. وتبين أن كل اتجاه ارتكز على مجموعة من المتتاليات - النصوص ذات الأيديولوجية الواحدة التي تشير إلى المدلول بطريقة ظاهرة ولا تحرج المتلقي، وهذه المتتاليات - وغيرها التي لم يذكرها البحث كلها - توحي بدوال متعددة مثل:

تلويث الطعام وأوانيه، وعدم احترام الطعام، والإنكار للشره والحيوانية في تناوله، وأن التطفل نوع من سوء الأدب، وتجريم النظر إلى الطعام ومراقبة آكله.

والقسم الثاني من الرموز الصغرى والذي يرتكز على العلاقات الاجتماعية، يشتمل في عيوب يجب التخلص منها مثل: الهيئة القبيحة في الملبس، وتجريم الحفاء، أو السير دون حذاء، والسوقية في معاملة الآخرين، والاندفاع في الحديث دون تريث بما يسئ للجليس، وتلويث البيئة، وفساد الذوق الجمالي، ونشر البدع والضلالات، والاحتكام للهوى وإهمال العقل، كلها نصوص يتضمنها الخطاب، وتشير للمدلول الذي يعطل الرقي الإنساني.

٢- أما المجال الثاني فيرتكز على علامات غائبة غير مذكورة لا يصل إليها القارئ إلا من خلال شفرات هي مفاتيح النص وهي عبارة عن:

- أسماء أعلام تشير للعنصر المهيمن، فنجد هذه الأسماء غير مألوفة في ألقاب العرب، وتشير إلى وضاعة تصرفات أصحابها، وأن هذه الأسماء قد التصقت بأصحابها بسبب تصرفاتها أو أن المجتمع هو الذي ألصقها بها.

- مفردات تنتمي من خلال السياق النحوي والصرفي والصوتي والمعجمي لعلم

الإشارات يستعين فيها الجاحظ بمفردات غريبة لغويًا ووحشية ذات جرس صوتى منفر.

- مفردات تشير للشفرة باستخدام التضاد اللغوى، أى باستخدام المعنى العكسى للمفردة، معتمداً على مادة لغوية تستخدم فى الحياة اليومية يوظفها لهذا الهدف.

- بمعرفة التطور اللغوى للمفردات نصل إلى الشفرة، فبعض المفردات ظلت محافظة على معناها اللغوى حية فى حياتنا اليومية، بما يجعلها تتسم بالثبات اللغوى، لكنها فى نصوص الخطاب تشير للعنصر المهيمن مثل: الشطار، واللئيم وغيرهما؛ فهى ألفاظ متداولة فى حياتنا اليومية إلا أنها مغايرة لمعناها اليوم، وبمعرفة ذلك نصل إلى الشفرة. من هنا نستخلص أن الجاحظ جعل لكتابه غرضين أحدهما رئيسى عن البخلاء وأحاديثهم وتصرفاتهم وليس هو المقصود، وثانوى يبث به خطابه معتمداً على الرموز بطريقته غير المباشرة المتعمدة؛ إذْ لم يتوجه فيه بالحديث إلا لمن يريد أن ينشرح له الخطاب ويبوح بمقصيدته مطبقًا قول "كل لبيب بالإشارة يفهم" ولقد أحسن الجاحظ تطبيقه، بما جعل كتاب البخلاء كتابًا خالداً.

هوامش الفصل الثانى

١- المعجم الوسيط، ط٢، جـ ١، ص ٢٥٠
٢- لسان العرب لابن منظور، ط دار المعارف، ص ١٢٣٤
٣- المعجم الوسيط، ط١، ص ١٨١
٤- السابق نفس الصفحة.
٥- لسان العرب، ص ٩٠٧
٦- حضارة العرب فى عصر الجاهلية، حسين الحاج حسن، ط١، ١٩٨٤ المؤسسة الجامعية للدراسات، ص ١٦
٧- رسائل الجاحظ، رسالة مناقب الترك، ط١، ص ٧٠
٨- نظرية البنائية، د/ صلاح فضل، ص ٢٥٦-٢٥٧
٩- السابق، ص ٥٧
١٠- السابق، ص ٢١٢
١١- السابق، ص ٢١٢
١٢- البخلاء للجاحظ، ص ٤١
١٣- البخلاء، ص ١٥٦
١٤- النظرية الادبية المعاصرة، رامان سلدن، ترجمة وتقديم د/ جابر عصفور، ط١، دار الفكر، سنة ١٩٩١، ص ٢٥
١٥- البخلاء، ص ١٥٦
١٦- السابق، صئ ٧٣-٧٤
١٧- النظرية البنائية، ص ١٩٧
١٨- السابق نفس الصفحة.
١٩- البخلاء، ص ٧٥-٧٦
٢٠- السابق، ص ٧٨

٢١- السابق، ص ٨٦-٨٧

٢٢- النظرية الأدبية المعاصرة رامان سلدن ص ٢٩

٢٣- البخلاء، ص ١٠٧

٢٤- النظرية الأدبية المعاصرة، ص ٣٧

٢٥- البخلاء، ص ١٩٨-١٩٩

٢٦- البخلاء، ص ٧٩-٨٠

٢٧- السابق، ص ٧٨

٢٨- السابق، ص ٨٠

٢٩- دعاء الكروان، ط دار المعارف، سنة ١٩٩٧، ص٣٥

٣٠- البخلاء، ص ٤٦

٣١- البخلاء، ص ١٤٤-١٤٥

٣٢- النظرية البنائية، ص ٤١-, ٤٢

٣٣- السابق، ص ٤٥

٣٤- البخلاء، ص ١٩٨

٣٥- النظرية الادبية المعاصرة، رامان سلدن، ص ١٢٩

٣٦- البخلاء، ص ٦١

٣٧- علم اللغة الاجتماعى هدسون، ترجمة محمود عياد، عالم الكتب، ط٢، سنة ١٩٩٠، ص ١٧

٣٨- البخلاء، ص ١٢١

٣٩- البخلاء، ص ٩١

٤٠- البخلاء، ص ١٢١

٤١- النظرية الأدبية المعاصرة، ص ١٣٤

٤٢- البخلاء، ص ١٠٩-١١٠

٤٣- البخلاء، ص ٦٥

(*) ابتدع دى سوسير علم الإشارات فى مطلع القرن العشرين، انظر شفرات النص د/ صلاح فضل، ١٤٩

٤٤- البخلاء، ص ١٨٤

٤٥- البخلاء، ص ٧٥-٧٦-٨٣-٨٤-٨٥

٤٦- البيان والتبيين، مكتبة الخانجى، ط٧، سنة ١٩٩٨، جـ١، ص ١٤٤

٤٧- شفرات النص، د/ صلاح فضل، ط ١، دار الفكر، سنة ١٩٩٠، ص ١٤٩

٤٨- البخلاء، ص ٤١

٤٩- السابق نفس الصفحة.

٥٠- السابق، ص ١١١

٥١- السابق، ص ٤٣

٥٢- النظرية الأدبية المعاصرة، ص ٣٧

٥٣- عيون الأخبار لابن قتيبة "أبو محمد عبد الله، ت ٢٧٦هـ)، ط١، دار الكتب المصرية، سنة ١٩٢٥، المجلد الأول، ص ٩٠

٥٤- الوزراء والكتاب للجهشيارى (أبو عبيد الله محمد بن عبدوس ت ٣٣١، هـ)، ط١، سنة ١٩٨٣، مطبعة عبد الحميد حنفى بمصر، ص ٩٦-٩٧

٥٥- البخلاء، ص ١٩٨

٥٦- السابق، ص ٧٥

٥٧- السابق، ص ٧٨

٥٨- السابق، ص ١٤٣

٥٩- نظرية البنائية، ص ٢٣

٦٠- السابق، ص ١٠٢-١٠٣